المثل الأعلى

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

من أهم وسائل النجاح فى الحياة أن يحدد المرء له هدفاً يجعله غاية يسعى إليها ؛ لأن تحديد الغرض يمكّن صاحبه أن يتخذ له من الوسائل ما يضمن تحقيقه والوصول إليه ، أما هؤلاء الذين يسيرون فى حياتهم بلا هدف معين ، فهم كالذين يخبطون فى الصحراء على غير هدى ، قد تقودهم أقدامهم إلى بلد أمين ، وقد يردیهم الجهل والتخبط فيهلكون .

والمثل الأعلى نوع خاص من أنواع تحديد الهدف ، لأنه الغاية القصوى التى يراها الإنسان منتهى آماله ، ويعد نفسه سعيداً ناجحاً إذا انتهى به المطاف فى الحياة إليها ؛ فهو للانسان كالمنار الهادى ، يجذبه بنوره ولألائه ، ويضىء له مسالك طريقه ويرشده إن انحرف أو ضل ، ويقربه إن يئس أو مل .

وهو يختلف باختلاف الناس ، فما يصلح أن يكون مثلا أعلى للتاجر ، لا يصلح أن يتخيره الصانع ، والزارع والمصلح والكاتب والسياسى ؛ لاختلاف كل فرد منهم فى غايته ومراميه ، كما تختلف المثل العليا باختلاف عزمات الناس ؛ فما يتخيله صغير الهمة مثلا أعلى لا يرضى به الطموح ، ولا يقنع بالوقوف عنده :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

والغاية التى يسعى إليها المرء لا تسمى مثلا أعلى إلا إذا تحقق فيها شرطان أساسيان : أولهما أن تكون بعيدة المنال ، تحتاج إلى أمد طويل فى تحقيقها ، بل قد تحتاج إلى الحياة كلها . فالآمال التى يمكن أن تنال فى بضعة أعوام لا تدعى مثلا عليا ، فأن تكون مهندساً أو طبيباً أو قاضياً ليس من المثل الأعلى فى شىء ؛ ولكن أن تكون كبير المهندسين أو شيخ الأطباء أو قاضى القضاة هو المثل الأعلى الذى تكرس على نيله الحياة . وثانيهما أن تتطلب فى الوصول إليها جهداً غير عادى ؛ فما يمكن أن تناله من الرقى بمرور الزمن وحده لا يعد مثلا أعلى ، أما ما يحتاج منك إلى المشقة ، ويكلفك الجهد ، ويدفعك إلى العناء ، وكثيراً ما يحملك على أن تنهج نهجاً غير مألوف ، وأن تخترق الطريق من غير مواضع بدئه ونهايته فذلك هو المثل الأعلى .

يتخذ المرء مثله الأعلى شخصاً حياً يرقبه من قريب أو من بعيد ، أو شخصاً تاريخياً تبهره عظمته ، أو فكرة نبيلة تملكه ، ويهب حياته لتحقيقها ، فالتاجر مثلا قد يتخذ تاجراً آخر ناجحاً موفقاً مثلا أعلى له فى الحياة ، والحاكم قد يتخذ عمر بن الخطاب أسوة له حسنة ، والمصلح يتخذ فكرة صالحة مثلا أعلى يسعى لتحقيقه .

وإذا اختار الإنسان مثله الأعلى شخصاً حياً أو تاريخياً استطاع أن يدرس سيرته ، فيلمس فيها نواحى القوة والعظمة ، ويدرس المناهج التى اتخذت لتذليل الصعاب وتحطيم العقبات ، والوسائل التى انتهت لنيل الظفر والفوز بالنجاح ؛ فتستمد هذه الدراسة من عزيمة المقتدى ، ويرى فيها الدروس الصادقة الواقعية . غير أن الواجب فى الاقتداء ألا يلغى المرء شخصيته فيكون ذيلا

وكيف ترتاح النفوس إلى الشاعر إن لم يحمل إليها الأمل والتعزية ، ويوفر لها تلك الحياة الجميلة فى شتى نواحيها ؟

وهذه الحياة التى تريد أن يخلقها الشاعر لا نشعر عليها فى منتجات شعراء العصر بسبب المادة التى استأثرت بشعرهم فأفقدته تلك الحرارة بفقد العوامل التى كانت تثيره وتطلقه شعلاً زاهرة على آفاق المجتمع . وهكذا اختل نظام الشعر — وما كان الشعر إلا دموع الإنسانية تنحدر قطراتها بلسماً على جراحه .

***

وبعد . فيستطيع الإنسان أن يبنى القصور ، ويحشد الثروات ، ويعمر الأرض والفضاء ... يستطيع أن يفعل كل شىء ، لكنه إذا تنازل عن الشعر فإن حياته تمسى عارية جرداء . والغرب لو لم يخنق عاطفته وشعوره ما كان ليبنى اليوم أكبر أزمة فكرية فى تاريخه .

إن مستقبل الشعر بين الموت والحياة . فهل للملهمين من أبناء الحياة ، وقد سطروا القيم الخالدة على مدار العصور ، أن يحتضنوا الشعر ويغذوه بجمال الطبيعة ليقوى على مواكبة الأجيال .

يوسف البعينى
من البعثة الأزهرية

لسواء ، لأن إنصاف الشخصية ، بنافي طلاب الكمال والتسامي إلى المجد . والتقليد إنما يحصل في نوع الفضائل التي تبهر كمدل عمر وصلابته ، ووطنية معطفي كامل ومثابرته ، وقوة المتنبي وفحولته ؛ أما إذا اتخذ الشاعر شاعراً آخر مثلا له ، وظن أن معنى المثل الأعلى تقليده في أفكاره ، والسرقة منه في معانيه ، فإنه يعيش عيلا عليه ، لا يرتفع إلى مستواه ، ولا يمنحه الناس من الإجلال ما يمنحونه لمن يقلده ، فاحتفاظ المرء بشخصيته ، وطبع أعماله بطابع هذه الشخصية شرط أساسي للنجاح ونيل المجد .

كيف نختار لأنفسنا مثلا عليا ؟ ومن أين نأخذها ؟ وكيف ننجح في الوصول إليها ؟ مسائل ثلاث مهمة ؛ فإن نجاح المرء في الوصول إلى المثل الأعلى يتوقف إلى حد كبير على اختيار هذا المثل ؛ ولا يكون الاختيار حسناً إلا إذا عرف المرء نفسه ، ودرس اتجاهاته وميوله ، وعرف مقدار ما لديه من قوة الإرادة وصلابة العزم ، ثم بنى اختياره على أساس من هذه الدراسة الدقيقة . والإخفاق إنما يأتي من غرور المرء بقوته ، وظنه أن له من المزايا والصفات ما ليس له ، أو من خطئه في تعرف ميوله واستعداده ، فيضل الطريق وقته ، فإذا كانت استعدادات الإنسان وميوله تتجه مثلا إلى التجارة ، والتصرف في شئونها ، فليختر مثله الأعلى المجد التجاري ، وليثق بأن النجاح سيكون حليفه . أما إذا اختار أن يكون مثله الأعلى كاتباً يشار إليه بالبنان فهنا يكون الإخفاق ولا يتم الظفر بإحدى الغايتين .

والمثل العليا لها مصادر شتى ، منها كتب التاريخ ، فهي حافلة بالنماذج السامية للانسانية ، يستطيع القارىء أن يتخذ منها ما يتفق مع ميوله وما يراه جديراً بالتأسي والقدوة . في تلك الكتب مجد الحكام والزعماء والعلماء والمخترعون مثلا تهديهم وتنير لهم السبيل .

ومن تلك المصادر أيضاً كتب السير التي تتخذ موضوعها شخصية ناجحة تدرس حياتها ووسائل نموها ، والأسباب التي مهدت لها سبل الفوز والنجاح . وبهذه المناسبة أرى أن التأليف العربي ، يجب أن يعنى بتاريخ المعاصرين الذين نجحوا في حياتهم من التجار والصناع والزراع حتى نضع بين أيدي النشء نماذج لأنواع المثل العليا .

ومن مصادرها المسرحيات التي يكون من أغراضها تصوير السمو الإنساني لبطل حقيقي أو متخيل ، وكذلك الروايات والقصص التي تعالج هذه الناحية السامية .

ومن تلك المصادر الشعر أيضاً ؛ فقد حفظ لنا سوداً لنماذج ممتازة من الناس ، ومثلا راقية من الأخلاق . ومنذ القديم يضع القادة الشعر في قائمة تربية الناشئين ، وغرس المثل العليا في نفوسهم . وللشعر أثر كبير في توجيه النفس نحو الكمال ، والبعد عن الصغار ، وها هو ذا معاوية بن أبي سفيان يتخذ مثله الأعلى بطلا بأبي الفرار من ميدان القتال مهما كان الثمن :

حدث معاوية قال : « اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر أدبكم ، فقد رأيتني بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل يميد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أبت لي عفتي وأبي بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن عرض صريحي »

وقد صدق أبو تمام حين قال :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بناة الندى من أين تؤتى المكارم

هذا وفي الحياة أمامنا نماذج صالحة لأن تكون مثلا عليا ؛ فلدينا معاصرون جعلوا وسيلتهم إلى المجد همة ماضية وعزيمة قوية ، وهم شواهد حية على أن المرء يستطيع أن يحقق مطامحه إذا أراد وعمل :

والطريقة الفضلى لتحقيق المثل الأعلى أن ترسم الخطط والوسائل التي تصل بنا إليه ؛ فإننا إذا حددنا المنهاج وضح أمامنا الطريق ، ورسم الخطة يحتاج إلى تفكير عميق ووزن دقيق للأمور واستفادة من تجارب الآخرين . ومن الواجب أن تكون الخطط التي تصل إلى المثل الأعلى متنوعة متعددة ؛ فإذا نال المرء الإخفاق في واحدة ، لم يكن اليأس سبيل إلى نفسه ، ولم يتحطم بهذا الإخفاق ،

بل يكون قد أعد العدة من قبل لينهج نهجاً آخر يصل إلى الغاية عينها ؛ أما إذا رسم لنفسه خطة واحدة ، ولم يفكر فيما يعنيه إذا أصيب بالإخفاق فيها فإن الصدمة تكون قاسية إذا فشل قد تقضي عليه وتحطمه . والمرء حين يضع الخطط يقدر دائماً أن كل خطة منها عرضة للنجاح والفشل ، لأن ظروف الحياة لا سلطان لأحد عليها حتى يكيفها كما يريد . فليقدر المرء إذاً حين يخطو كل خطوة أنه قد يفوز وقد يخفق ، لأن هذا التقدير يحول بينه وبين الصدمة إذا لم تنجح خطوته ، فيعود من جديد ليحاول محاولة جديدة . والذي يصمم على النجاح لابد أن يظفر به ولو كانت المحاولات الأولى في سبيل أمله فاشلة غير ظافرة :

ومطالب العلياء حتماً تطلب ... إلا إذا اطرح الجهاد وقصر

فأول شرط النصر — كما يقولون — إرادة النصر . والتصميم على الظفر يسهل على المرء بدء المحاولة من جديد إذا أخفق ، كما أنه يحول بينه وبين اليأس الذي هو أعدى أعداء المثل العليا ؛ لأن اليأس رضا بالسلبية واعتراف بالضعف ، ووقوف في منتصف الطريق ونكوص عن الجهاد . ومن أين لليائس أن يظفر بغايته وقد رضي أن يضع سلاحه ويستريح :

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ومن بواعث اليأس في النفس التفكير في ماض مخفق ، والحزن على ما أفلت من فرص ، فإن ذلك الحزن يضعف قوة المرء على الجهاد . وإنما يفكر المرء في الماضي لا ليحزن على ما فات ، ولكن ليتخذ من أفلاطه عظة ودرساً في قابل الأيام !

إن من يهيء نفسه لنيل مثل أعلى يجب أن يسلم أن الطريق إليه شاق طويل ملىء بالصعاب والعقبات ، وأن لا سبيل إلى قطعه إلا إذا كان لديه ذخيرة كبيرة من الجلد والمثابرة ، فإن بلوغ الآمال لا يتطلب منا ذكاء نادراً ، ولكنه يتطلب الصبر والمثابرة . سئل بعض الزيرين عن شروط النجاح فقال : ثلاثة : أولها المثابرة ، وثانيها المثابرة ، وثالثها المثابرة .

كما أن التفاؤل يجب أن يكون رفيق المرء في هذا الطريق ، لأن التفاؤل يبعث في النفس سروراً ، والسرور يضاعف قوة المرء على الاحتمال ، وعلى تخطي الصعاب والعقبات ؛ وليس معنى التفاؤل تقدير النجاح في كل خطوة ، ولكن معناه تقدير النجاح النهائي ، واعتقاد أن الفشل عارض من المستطاع التغلب عليه .

هذا ، وعلى من يريد النيل العليا أن يحاسب نفسه في الحين بعد الحين ، ليرى مقدار ما قطع من الطريق ، ومدى نجاحه في خطته ؛ ليعدل منهجه إذا احتاج إلى التعديل ، ويستفيد من أخطائه إذا هفا وزل .

ومن ذلك يتبين أن المثل الأعلى ليس أمنية تتمنى ، ولا أملا يرجى ، ثم يقف المرء عند التمني والرجاء :

فما طلب المعيشة بالتمني ... ولكن أتى دلوك في الدلاء

فهو هدف يجاهد المرء في سبيله ، ويكرس له حياته واضعاً نصب عينيه قول أبي تمام :

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها ... تنال إلا على جسر من التعب

أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

وزارة الحربية والبحرية

مدير عام مصلحة الطيران المدني

يقبل المطاءات لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم ١٩٤٩/٧/٣١ عن عملية دهان عمر بالبيتومين للطائرات بميناء أمير الصعيد الجوي بالأقصر وتطلب الشروط والمواصفات مقابل ٢٥٠ مليم من قسم المشتريات بالمصلحة بمكتبات قصر النيل ويضاف إليه مبلغ ٤٠ مليما أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة تمغة فئة ٣٠ مليما

٢٢٠٠